الحداثة لا تعني القطيعة مع التراث

الأستاذ الدكتور حسين جمعة

لا تزال الحضارة العربية قادرة على الظهور بأنماط شتى في الفكر الإنساني وأدبه وفنونه وعلومه، ولا تزال تشكل علامة مضيئة في التاريخ الإنساني، فهي واحدة من أزهى الحضارات الإنسانية التي تعيد خلق الأشكال الفنية والأدبية والنقدية واللغوية بما يسمى اليوم إعادة إنتاج القراءة والكتابة في نظرية التلقي الحديثة أو نظرية الاستقبال بل في نظرية ما بعد الحداثة المعروفة بنظرية التفكيكية ... ولهذا فإن الأنماط الأدبية والنقدية واللغوية والفنية لتراثنا أصبحت معطىً إنسانياً عاماً وليس معطىً ثقافياً عربياً فحسب. ومن يستحضر الأشكال الأدبية والفنية واللغوية والنقدية المنتجة في الغرب خاصة يدرك ضخامة الإفادة من الموروث العربي، وهي من الضخامة بمكان ما يجعلها تصل إلى درجة كبيرة أكثر منها إعادة إنتاج له. فالقارئ لجحيم دانتي في (الكوميديا الإلهية) يلحظ مدى تأثره بالتراث المشرقي سواءً أكان هذا في قصة المعراج أم برسالة (التوابع والزوابع) لابن شُهيد الأندلسي أم برسالة (الغفران) للمعري، بل إن القارئ لجحيم غوته يبصر مدى تأثره برسالة الغفران .... والقارئ لمسرحية (عطيل) لشكسبير لا يبرح عقله ذلك الموروث الذي قرأه في حكاية (ديك الجن) الحمصي ... وكذلك نرى العديد من الكتاب الغربيين الذي أفادوا من قصة (ألف ليلة وليلة) كما في رواية (الخيميائي) لباولوكايلو الذي يكتب باللغة الإسبانية وما برحت قصة (ألف ليلة وليلة) تقدح أذهان الباحثين والنقاد شرقاً وغرباً للخوض في أعماقها وتفسير دلائلها المختلفة كما نراه في بحث الأستاذ حسن حميد الذي تضمنه هذا العدد من مجلتنا.

ولهذا كله نرى أن القطيعة مع تراثنا باسم الحداثة تعد جريمة كبرى في حقه وحقنا، فالحداثة بوصفها نمطاً من التحضر والتمدن في الحياة والأدب والفن والعادات والفكر لا تعني استنادها إلى مفهوم الضدّية المتناقضة مع الموروث بل تعني تجديده وابتكاره بقوالب مستحدثة تؤدي إلى تنظيم علاقات متقدمة ومنظمة وفق مناهج دقيقة وواضحة ومفيدة .... أي إن الحداثة تعني إقامة التناسب والتناغم بين القديم والجديد في إطار مفهوم النقد التحليلي والانفتاح على ثقافات الشعوب وآدابها وفنونها ... دون أن نقف عند بعض المقولات الضارة من مثل (أبو نواس بودلير العرب).

وفي ضوء هذا كله يقع هذا العدد المزودج (3+4) من المجلد الحادي والعشرين في أبحاثه المكتوبة باللغة العربية أو المكتوبة باللغة الأجنبية ... وهي أبحاث نقدية وأدبية ولغوية تستلهم التراث ولا تتعارض مع الحداثة، فهي توحّد بين الأصالة والمعاصرة بأسلوب واع ومتزن ..... وحينما تتجه بعض الأبحاث النقدية إلى الاستنارة بالآراء النقدية الغربية كما نراه في بحث (الفيض الفني في سيمائية الألوان عند نزار قباني) فلا يعني هذا أن ينفك البحث من العودة إلى آفاق واسعة من الثقافة العربية قديمها وحديثها.

ويمكننا مرة أخرى أن نشير في هذا العدد إلى مكانة الباحثة الجامعية في صناعة الثقافة العربية الحديثة ... وهي تشارك فيها مشاركة فاعلة ترفعها إلى مستوى عالٍ في تجاوز ما عرف بالإعاقة الثقافية والنفسية والاجتماعية لإنتاج الأديبات والناقدات .... فالمرأة الشرقية ليست مادة للهو في ساعات الفراغ تتمايل على بهرجة تراكم الأثواب الحريرية والجواهر المتلألئة بل هي شريك للرجل المبدع في صناعة الحياة والأدب والفن، لهذا يتعين عليها قبل غيرها أن تمارس عملية بناء النهضة الفكرية والاجتماعية والأدبية والنقدية ممارسة واعية وفاعلة. ولعل هذا ما نجده في بحث الدكتورة سميحة غنام (دراسة جمالية في شعر الشريف الرضيّ) وبحث الدكتورة ليلى توفيق العمري (تلبيات العرب في الجاهلية)...

وبناء على ما تقدم ندرك أن الحداثة ليست متغايرة مع التراث ولا خروجاً عليه، بل هي تكيف إنساني حضاري بين الأصالة والمعاصرة وأي نهج حداثي يبنى على أساس القطيعة مع التراث إنما هو قتل للشخصية الذاتية والقومية، الثقافية بل الإنسانية ... وإذا كنا ممن يؤمن بتبني العقلية الحديثة المتطورة لبناء نهضتنا وثقافتنا فإننا نؤمن في الوقت نفسه بأننا قادرون على تجديد تراثنا بما يحقق لنا حركة الحداثة المتطورة و المتوازنة والمتوافقة مع التراث من خلال فهمه وتحليله تحليلاً منهجياً وعلمياً دقيقاً. ويعد الباحثون الجامعيون في طليعة من يمارس هنا المهمة النبيلة في حياتهم وأبحاثهم الثقافية والعلمية والأدبية والفنية والنقدية واللغوية .....

ومن هنا أرى أن بحث (دراسة جمالية في شعر الشريف الرضي) قد حاول الكشف عن علاقة الفن بصاحبه وفق ما صنفه المفكر الفرنسي (شارل لالو) الذي انتهى إلى خمسة أنواع في تفسير العقد النفسية، أما بحث (تلبيات العرب في الجاهلية) فقد توقف عند قراءة تلبيات العرب بوصفها صيغاً أدبية تتنوع موضوعاتها وأشكالها الفنية بما يجعلها نماذج فنية

راقية، وكذلك حاول بحث (وحدة المعنى والصورة والنغم) أن يكتنه وحدة القصيدة ولملمة أجزائها من خلال الإيقاع ... فالإيقاع جزء مهم في بناء القصيدة المستندة إلى اللغة والصورة وغيرهما، ثم جاء بحث (ظاهرة الانزياح الأسلوبي في شعر خالد بن يزيد الكاتب) دراسة أسلوبية حديثة للنص الشعري القديم وفق ظاهرة الانزياح على أربعة محاور رئيسية، ويماثله بحث (الفيض الفني في سيميائية الألوان عند نزار قباني) فهو بحث يُعنى بتأثير الألوان نفسياً، ويبين مفعولها الفني في بناء القصيدة. ولعل البنى النفسية في بحث (ألف ليلة وليلة :القص / الاستماع) كانت وراء القراءة الافتراضية الجديدة للتأويلات العديدة التي تقوم عليها هذه القصة الشهيرة، وهي التي دعت كاتبها إلى الغوص في أعماق المخبوء للنسيج الفني واللغوي لكل جملة فيها .

وكذلك كانت البنى اللغوية لسيمياء العنوان وراء الكشف عن الخصائص التركيبية الدلالية الحقيقية والمجازية لبحث (سيمياء العنوان: القوة والدلالة) وربطها بسياق النص وسياق نصوص أخرى ...

والحديث يطول بنا لو أردنا استقصاء ما جاء في بحث (فلسفة الموجود عند أفلاطون) إذ ركز على مفهوم فلسفة (الموجود) من خلال سياق تطوره التاريخي لتحديد طبيعة العلاقة بينه وبين (الخير الأسمى) كموجود عقلي، أو ما جاء في بحث (اللنغوبراغمتية والترجمة) المكتوب باللغة الانكليزية والذي حاول دراسة الصيغ اللغوية ذات القيم الاجتماعية الثابتة في التواصل اللغوي الفعلي، أو ما جاء في دراسة رواية (موبي ديك) لهيرمان ملفيل ... فقد كشف الدارس عن إفادة (ملفيل) من التراث الشرقي العربي والإيراني في إبراز شخصيات روائية ولا سيما شخصية (موبي ديك) ... ومن ثم فقد ضم هذا العدد أبحاثاً ومراجعات ذات فائدة كبرى للقارئ في الوقت الذي ضم ملخصات رسائل للدكتوراه والماجستير.

وبعدُ فإن هيئة التحرير حريصة كل الحرص على تقديم الأبحاث المبتكرة الجادة والرصينة، وهي تطمح إلى أن تظل مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية مجلة للكتابة المبدعة التي ترقى بالابداع والنقد والأدب والفكر على الرغم من صعوبة المعادلة القائمة على طرفين: الأول يتمثل بالباحثين والثاني يتمثل بالمجلة التي تأمل من الطرف الأول أن يكون على مقدار النهوض بتطلعاتها لبناء نهضة ثقافية وفكرية وأدبية ونقدية ولغوية تليق بالبحث الأكاديمي وترتقي بأدواته خدمة لثقافتنا وشخصيتنا الحضارية دون أن نقع في مطب القطيعة بين الحداثة والتراث.

أ. د. حسين جمعة